(فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا)

رؤية العالم والإنسان في العلاقات بين الحضارات والفنون

عبد الرحمن السالمي *

مصطلح (رؤية العالم) في الأصل مصطلح فلسفي سكَّه الفيلسوف الألماني فلهلم دلتاي بديلاً لمفردات وتعابير أخرى، يعنى به النظرة الحاكمة للأفراد وللمجتمعات في ثقافةٍ معينةٍ أو دينٍ معينٍ تُجاه القضايا النظرية الكبرى والأخرى المحلية والفردية من جانبها العملي.

أما القضايا الكبرى فتتناول تصورات الخير والشر، والسعادة والشقاء، والنجاح والفشل، وأحوال الوجود الإنساني وأولوياته، وأما الأخرى العملية فتتناول القضايا نفسها ولكن على المستوى الفردي، وفي الجانب المحلي والواقعي الضيق، والعلاقة بين الأمرين هي علاقة بين الخاص والعام، وبين الفردي والجمعي. فالتصورات البازغة لدى الأفراد في مسائل المعنى تتأثر كثيراً بالبيئة الخاصة وبالتربية وبالعلاقة بالأسرة، والعلاقة بالمجتمع المحلي فالمجتمع الواسع. وفي التصورات الفلسفية الإسلامية القديمة أن العقل أو سلطة الحكم على الأشياء والمعاني إنما هو قسمان: طبعي وكسبي، والطبعي هو الفطري الذي تكمن فيه إنسانية الإنسان، أما الكسبي فهو الذي ينمو ويتطور بالتعلم والتربية وتجارب الحياة الناجمة عنها أو عبرها، ولا شك أن الدين والثقافة الاجتماعية هما عاملا التأثير الأساسيان على الأفرادِ وهما اللذان يكونان معظم تصورات الفرد، ويؤثران بالتالي في تصرفاته تأثيراً كبيراً تجاه أسرته وتجاه مجتمعه، وفي القضايا الخاصة والعامة. فالتصورات الثقافية العامة أو ما يُعرف بالثقافة الوطنية أو القومية أو الأولويات ليس حصيلة ميكانيكية للتصورات الفردية أو المحلية، وإنما يكوِّنها الوعي المستقل عن الواقع وإن لم ينفصم عنه بالكلية. وتدخل في ذلك العوامل الجغرافية والديمغرافية والتجربة التاريخية والمثالات التي صنعتها تلك الأوضاع وأعاد تشكيلها المثالي الديني والثقافي الكبير والعام.

وهكذا فإننا نستطيع الحديث عن رؤية العالم والذات أو روح الحضارة في المجال الإسلامي، كما في المجال الأوروبي والغربي العام، والروح هذا يضم عناصر موروثة مادية ومعنوية، كما يضم عناصر واعية تتشكل في الآفاق الجديدة وسط تجاذب بين عاملين: عامل الحفاظ على الموروث العام الذي يمثل روح الحضارة، وعامل التجديد

الذي يقصد إلى التلاؤم أو الاستجابة للحاجات الجديدة النابعة من الإحساسات الفردية، ومن إرادة النُخب الثقافية والسياسية إلى أن تتبلور في مشروع عام.

لقد حفلت السنوات الماضية بنقاشات واسعة بشأن الحضارات والثقافات، وقد قال صمويل هانتيغتون، المفكر الأميركي: إن كل الحضارات المعاصرة محورها الدين، وهكذا الأمر في أوروبا والولايات المتحدة، فهي مجال حضاريٌ واحدٌ محورهُ الدين المسيحي أو الموروث اليهودي - المسيحي. أما حضارة المسلمين عنده فمحورها الدين الإسلامي، وهو في العقود الأخيرة في حالة يقظة تدفعه لإبراز الخصوصيات، ومصارعة الآخرين؛ ومن هنا جاءت أطروحته بشأن صراع الحضارات، وفي حين واجهه المتشددون المسلمون بأطروحة الفسطاطين، ركزت الأكثرية من المفكرين والمثقفين الغربيين والشرقيين على مسألة الحوار أو التحالف بين الحضارات، وليس على مسائل الصراع.

وقد ركزت مجلة التسامح منذ أعدادها الأولى على مسألة الحضارة، ليس من أجل الصراع أو الحوار؛ بل من أجل استكشاف الآفاق والمشتركات التي تتناول الأسئلة والمفاهيم الأخلاقية الكبرى، والأفاق التي ينبغي ريادتها لصون وتطوير تلك المفاهيم المشتركة، واقتراح سبلٍ للسير في مقتضياتها بما يخدم العلاقات بين بني البشر، والقائمة على قيم وأخلاقيات السلام والتعاون والتسامح والتقدم.

وقد قمنا في أعداد المجلة الماضية بالفعل -ومن خلال المحور في كل عدد- بمقارنات فاهمة في شتىّ المسائل والمنظومات الحضارية والثقافية والاقتصادية والدينية والقانونية والسياسية. وكما سبق القول؛ فإن المشتركات كانت هي رائدنا، دونما تجاهل للافتراقات وأبعادها؛ سواء ما اتصل منها بالأمور السياسية والإستراتيجية، أم بالأمور الدينية والأخلاقية.

وقد رأينا - وبعد تجربة ست سنوات في هذا المنزع ومنازع أخرى خاصة وشاملة؛ أنه آن الأوان للقيام بمقارنةٍ شاملة الحضارتين العربية -الإسلامية/والأوروبية- الغربية. لكننا خصصنا المجال الأوروبي - الغربي (في هذا العدد بالذات) بالاهتمام الأكبر لاستكشاف العناصر الرئيسة في تلك الحضارة، وما هي الأساسيات لديهم في مجال روح الحضارة، ورؤية الذات والعالم. وكان هيغل، الفيلسوف الألماني، قد حدد ثلاثة عناصر رئيسة في حضارةِ الغرب الأوروبي وهي: الدين والفلسفة والفنون، وقد سبق لنا أن اعتنينا عناية خاصة بالدين وعوالقه في كثير من الأعداد، ولذلك انصرفنا في هذا العدد للعناية بالفنون وفهمها في المنظومة الحضارية الغربية، على أن نعود للاهتمام بالفلسفة في أعدادٍ قادمة.

وأول ما يخطر بالبال أن المنظومة الهيغلية في فهم الحضارة الغربية إن اعتبرناها أساسا للمقارنة والتفهم، تبرز لنا كقاعدة للقواسم المشتركة بين الحضارتين والمنظومتين الغربية والإسلامية، كوجهين لعملة واحدة. بيد أن أستاذنا العلامة البرفيسور رضوان السيد خلال حديثي معه يرى عكس ذلك؛ إذ بعد الدين عندنا لا تأتي الفلسفة كما لا تأتي الفنون وإنما

تـأتي من وجهـة نظره القيم الأخلاقيـة ومن ثم العمل الفردي أي الإبـداع، أو الفعل الفردي في مجاله العام؛ ولكن إذا ما ركزنا على تفنيد هذه العناصـر الحضارية بإيجاز مبسّط نجد أنهـــا تشـــترك في مصـــدريتها وإن اختلفـــت بعـــد ذلـــك في مفاهيمهـا، فالـدين (الإسـلام/المسيحية/اليهودية) وهو المصدر الأول لهاتين الحضارتين قد تأسسّ في الدعوة الإبراهيميـة للتوحيـد الإلـهي. أمـا الفلسـفة الإسـلامية والغربيـة فكلاهمـا تنبـع من الفلسـفة الأرسـطية والتي تتكون من عناصـرها الأربعة: المنطق (اللغة-الشروح-التأويل)، الفيزياء (الكـون-الروح-الحـواس-الـذاكرة ...إلـخ)، الأخلاق، الميتافزيقـا (السـبب المادي-السـبب الفعلي-السـبب التعبيري) والأهم من ذلك أن الفلسفة الأرسطية أقرت بالمبدأ الأول الذي لا أحـد قبلـه، وهـو المصـدر لكـل الحركـات وهـو ذاتـه غير متحرك، والمتفضـل بنعمـائه، والموجود الأزلي اللامنقطع. فهو برهنـة بالعقل على وحدانية الله، وهكذا نجد نحن أنفسـنا في هذا التقارب الديني والفلسفي بين الإسلام والغرب مختلف كليا عن مصادر الحضارات الأخرى كالهندوسـية والبوذية والصينية. أما الفنون الإسـلامية والتي يقسمها الباحثون إلى ثلاثة أقسام: 1- الأموية 2- الكلاسيكية المبكّرة-العباسية حتى القرن 11م. 3- الكلاسيكية المتـأخرة - المرحلـة الإقليميـة وهي مع بدايـة تشـطي الدولة العباسـية وقيام دول الغزنوية والسامانيـة والسـلاجقة، وبرزت خلالهـا ثلاثـة اتجاهـات متأثرة: أ- بالمرحلـة المتوسـطية المتقدمة (المسـيحية المبكرة والإغريقيـة/الرومانية المتأخرة)، ب- الإيرانية والشـرق حتى ما وراء النهر. ج- إنتاج ولادة الفن الإسلامي المتكامل مع ظهور الفن الإقليمي لكل منطقة وعُرف بمسمى الفن الإسـلامي كظاهرة حضارية متفردة ينعت بها ومن ثم عُرفت أسـماء الفنانين كميزة فنيـة في الإبـداع يحتفى بها وعلامـة تجاريـة تسويقيـة لكل فنان دون سواه, وهي مرحلـة متقدمة عن فنـاني عصـر النهضة في أوروبا. بيد أن الميزة الأساسـية في هذا العنصر هو استطاعة الإسلام في دمج فنون لثقافات وحضارات متعددة وليكون رابطاً بين حضارات الشرق والغرب، ساعـدت على امتداده الكوني مع الحفاظ على ثقافات الشـعوب والأعراق ومتجاوزاً التضييق في المركزية الإقليمية النظرة نحو الآخر.

مع هذا الإيجاز المبسط لعلائقنا الحضارية فالواجب علينا الآن أن نعتمد المراجعة النقدية والواعية في فهم أساسيات تجربتنا الحضارية بما في ذلك مراجعة منزلتي الفنون والفلسفة فيها - كما أن علينا أن نقرأ التجربـة الحضاريـة الغربيـة بثلاثة أشكال **أولاً:** فهم الغربيين لحضارتهم، **وثانياً:** فهم العرب والمسلمين ورؤاهم للغرب والعالم، **وثالثاً**: فهم الغربيين قديماً وحديثاً للحضارة والثقافة لدى العرب والمسلمين.

ونأمل من وراء عملنا وأعمال مفكرين عرب ومسـلمين آخرين أن ينشأ لـدينا شـكل رابع للفهم والتقدير هـو الصـيغة العربيـة - الإسـلامية للتفهم والتعامـل ووضع الاستراتيجيـات الطويلة الأمد (الناجمة عن وعي واسع) للتلاقي والمشاركة مع العالم وفيه.